

خطاب الهوية وأزمة المثقف في الخطاب الروائي الجزائري مقاربة ثقافية في " رواية وحيدا في الليل " لبشير مفتي

The Discourse of Identity and the Crisis of the Intellectual in Algerian Narrative Discourse A Cultural Approach to "Alone at Night" by Bachir Mefti

د/ عواس الوردي * (1)

جامعة عباس لغرور خنشلة، (الجزائر)

Dodo.wardi40@gmail.com

مخبر المتخيل النقدي المعاصر والدراسات الحداثية في الفكر واللغة والأدب

أ.د. كمال طاهير (2)

جامعة عباس لغرور خنشلة، (الجزائر)

KATAHIR05@hotmail.fr

مخبر المتخيل النقدي المعاصر والدراسات الحداثية في الفكر واللغة والأدب

تاريخ النشر: 2025/06/07	تاريخ القبول: 2025/05/27	تاريخ الإرسال: 2024/09/08
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

تروم رؤية البحث إلى مقارنة وتمحيص حدود الكتابة الروائية الجزائرية في رواية وحيدا في الليل لبشير مفتي هادفة بذلك عن خطاب الهوية وأزمة المثقف العربي، أين استطاع الروائي تمثيل رؤيته المعارضة لحدود الخطاب السلطوي موظفا بذلك شخصيات مثقفة تصارع مؤسسات السلطة بغية إعلاء صوت المثقف وإعطائه قيمة فاعلة لإبراز طموحات البنية الاجتماعية التي عايشة أزمنة الثورة والإرهاب وعهد الانقلابات السياسية، الأمر الذي عزز فعل الوعي الثقافي بضرورة الدفاع عن هوية الأنا الوطنية والتأكيد على دور المثقف في تمثيل وتشكيل خطاب الهوية، لتعتمد رؤيتنا البحثية المقاربة الثقافية كمنهجية نقدية لتعرية وفهم حدود المثقف العربي والأزمات التي تلاحقه نظير كتاباته المعارضة والمقاومة لكل أشكال التهميش والتغيب الثقافي والاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الخطاب، المثقف، الصراع، الرواية الجزائرية، بشير مفتي.

* د/ عواس الوردي / أ.د. كمال طاهير

Abstract

The research aims to approach and scrutinize the limits of Algerian novel writing in the novel "Alone at Night" by Bachir Mefteh, targeting the discourse of identity and the crisis of the Arab intellectual. The novelist was able to represent his opposing vision of the boundaries of authoritative discourse by employing educated characters who struggle against power institutions to elevate the voice of the intellectual and give it a significant value to highlight the aspirations of the social structure that experienced the times of revolution, terrorism, and the era of political coups. This reinforced the act of cultural awareness regarding the necessity of defending the identity of the national self and emphasizing the role of the intellectual in representing and shaping the discourse of identity. Our research vision adopts a cultural approach as a critical methodology to expose and understand the limits of the Arab intellectual and the crises that pursue him in light of his opposing writings and resistance to all forms of cultural and social marginalization and erasure.

Keywords: identity, discourse, intellectual, conflict, Algerian novel, Bachir Mefti.

مقدمة

إن النص كيان ثقافي هوياتي توطره علاقات دلالية تعكس علاقة الذات المبدعة بواقع الوجود الحياتي، فلا نص بدون نسق لغوي يحاور من خلاله مؤسس العمل تقاطعات واختلالات الحياة هادفاً بذلك إلى تقديم رؤية أنية أو مستقبلية، تحمل في طياتها الكثير من التغيرات والآمال، فالنص تطهير لهوية الواقع باختلاف نوعه وبناءه الثقافي، والناظر بعيون فاحصة إلى جملة الأجناس الأدبية يجد نوعاً ثرياً يخالف الأنماط الإبداعية السائدة يتمثل في سلطة الرواية ودورها الفاعل في تغيير حلقة الإبداع، أين أضحي هذا الفن المعاصر قبله كل مبدع ثقافي نظير ما تمنحه من طاقات لغوية وتقنيات حكاية يسافر من خلالها المبدع بين عوالم الواقع والتخييل الفني، فالرواية تمثل سرد الحياة المعاصرة، ولعبة ثقافية تتخفى وراءها إيديولوجيات الذات الإبداعية، ممّا يمنح فعل القراءة نفساً جديداً يصنعه قارئ متباين الرؤى يسعى من خلال مخزونه المعرفي كشف غيبات النص، لتمثل بذلك الرواية عيون المثقف المعاصر لحظة بزوغها فكانت سلاحاً ثقافياً يلجأ إليها للرد على مختلف أشكال الخطاب، ويرصد من خلالها تقلبات الواقع المجتمعي، فالرواية محمول ثقافي تعبيرية ذات بعد سردي تخيلي يخالف سلطة الحياة من خلال تقنياتها الجمالية، وباختلاف المنبت التاريخي لفن الرواية على الصعيد الغربي والعربي فقد استطاعت تشكيل مكانتها في أوساط النخب الثقافية.

ولعلّ القارئ لتاريخية الرواية العربية وتأخرها بفترات زمنية يلحظ الاهتمام الثقافي لهذا الجنس الفني، ليحدث بذلك نقلة نوعية في مسار الكتابة العربية اتخذها معظم الروائيين لتمثيل هويتهم والدفاع عن أوطانهم وتقاليدهم خاصة مع ظروف الاستعمار والاستثمار الغربي في مختلف الدول العربية كحال مصر ولبنان وتونس والجزائر، حيث تعدّ الأخيرة نموذجاً للتحدي والنضال السياسي والجهادي في سبيل نصر القضية

الوطنية، أين شارك فيها مختلف أصناف المجتمع لتمثيل ذواتهم وتأكيد رفضهم القاطع لوجود الاستعمار الفرنسي، تلك الظروف الحارقة والمآسي النابية التي أرهقت كاهل المجتمع الجزائري حاول المثقف العربي رصدها والدفاع عنها، ليشارك المثقف في ريعل الثورة ويمارس فعل الكتابة المضادة تجاه خطابات غربية إمبريالية، وقد يصل الأمر لمعارضة لسلطة الوطن نظير مخالفتها حدود البنية الاجتماعية، فباعت هوية المثقف المعارض تمثل خطراً على دعاة الحكم الفاسد وكل صناعات القرارات الاستبدادية، والمتمعن في صلب الرواية الجزائرية يقرأ تلك الأصوات الصارخة والحالمة بمستقبل أفضل، هي حناجر وأقلام مثقفين بايعوا هوية الوطن وعارضوا وجود الاحتلال والظلم، ورغم الشعارات والنضالات الواسعة بقيت مكانة المثقف بين حبال الخير والشرّ نظير عواصف السلطة السوداء، فالمثقف دليل القارئ البسيط وتمثيل لهويته الغارقة في نبال الاستعمار أو السلطة الاستدمارية، هي نماذج شافية وعديدة تتخللها الرواية الجزائرية أبدع من خلالها مثقفو الحياة في تمجيد هويتهم وتكريس وجودها الاجتماعي كحال روايات الطاهر وطار، واسيني الأعرج، مبروك دريدي، بشير مفتي... وغيرهم، ويعدّ الأخير نموذجاً لوعي المثقف المناضل ومراً عاكسة عن هوية المثقف المتحرر والمدافع عن قضايا وطنه، فكانت أعماله أشجار القيامة، وحيدا في الليل توليفة ثقافية لحال المثقف العربي وموقفه من خطاب الآخر ورفضه القاطع لسياسات الحكم الفاسد خاصة في رواية وحيدا في الليل التي شكلت نقطة بحث لتمحيص لكشف علاقة المثقف بهويته والسلطة، فكيف تجلى خطاب الهوية في هذه الرواية؟ وهل عبرت مقاصد النص عن أزمة المثقف العربي؟، هي أسئلة باحثة عن كشف ما ورائيات الرواية لاستنطاق المقموع والمسكوت عند في جذريات الطابوهات الثلاثة: السياسة والجنس والدين وربطها بالإطار الدلالي الذي أسهم في تشكيل خطاب الهوية وصراع المثقف في كتابات بشير مفتي.

1/ الرواية الجزائرية وخطاب الهوية

لقد شكّل سؤال الهوية محورا ثقافيا في تشكيل خصوصية الرواية الجزائرية منذ بدايتها إلى غاية اليوم، ممّا يبرز الترابط الثقافي بين نسق الهوية وبنية الرواية، لتمارس الهوية حضورها في حيثيات الروايات الجزائرية سواء التي عبرت عن الثورة والمقاومة أو معاناة الشعب الجزائري جراء ظروف سياسية واجتماعية، لتحمل الرواية مواضيع الحرية، الدعوة إلى النضال و الثورة ونقرأ ذلك في روايات كاتب يسين ومالك حداد وآسيا جبار، ورغم تأخر ظهور فن الرواية في الساحة الجزائرية إلا أنها عايشة روح الثورة قبيل الاستقلال وبعده، فكانت موضوعاتها عن فتيل الحرب وروح المقاومة التي جابهت قلوب المجاهدين الأوفياء كرواية ما لا تذروه الرياح لمحمد عرعار وريح الجنوب لعبد الحميد هدوقة ما يفيد قولاً أنّ الرواية الجزائرية تأثرت بواقع الرواية العربية وتعبيرها الجارح عن واقع المجتمع العربي¹، ومع تطوّر الزمن وميلاد عصر الحداثة الذي تنوعت فيه تقنيات السرد الروائي انفتحت الرواية الجزائرية على تقنيات سردية فاعلة كالعجائبية،

والتخيل، والتجريب وغيرها من الأسس الفنية التي اعتمدها المبدع لإنتاج روايات أكثر نضجا في اللغة السردية والعناصر القصصية كما نجد في أعمال الطاهر وطار ومحمد ديب، فأضحت الرواية مرآة الكتابة لمتقفي الجزائر نظير التفتح السردى الذي تمنحه لفعل الكتابة فمارسوا عملهم وجسدوا مواقفهم السياسية ودافعوا عن نسق الهوية الوطنية، فجاءت معظم كتاباتهم رؤية في التغيير ومحاولة التعريف بعناصر الذات الوطنية، فأخذ كل مبدع يحاور هويته وفق تقنيات سردية مختلفة، فكان التاريخ عند واسيني الأعرج نسقا ثقافيا يحاكي علاقة الوطن بتاريخه الثقافي والديني، بينما اختصت كتابات أحلام مستغانمي بتمثيل هوية المرأة المتحررة من سلطة الذكورة داعية بذلك إلى إعلاء قيمة المرأة ودورها الثانوي في خريطة المجتمع².

إذن فالرواية الجزائرية صوّرت علاقة الإنسان بوجوده الثقافي والهوياتي وأخرجته من قيود وسجنات الرومانسية فاتحة بذلك المجال على معرفة تاريخه الحضاري، فالإنسان لا يدرك قيمة وجوده إلا بانخراطه في حلقة تشكّل هويته، فالهوية مربط الفرس الاجتماعي وغيابها يعني بترًا وتقتيلًا لروح النص، وكلما استطاع الروائي تمثيل عناصر هويته اقترب من معانقة قضايا مجتمعه، فلا مجتمع من دون هوية ولا ثقافة بدون نخبة فاعلة تدرك مهمتها في مشاكلة هويته الوطنية، فالطاهر وطار على سبيل المثال استطاع من خلال أعماله الرائدة كشف ملابسات الثورة والدفاع عن هويته الوطنية فكانت الزلزال، وعرس بغل واللاز تركيبة روائية أقل ما يقال عنها نموذج لوعي الذات المثقف بخبايا الواقع المنحط والغارق في مستنقع الاستعمار العدائي³.

كلّ هذا وغيره جعل الرواية الجزائرية ترتقي بلغتها وأسلوبها إلى النضج التجريبي واللغوي، فلم تعد لغتها كسابق عهدها ذات بعد رومانسي غير هويي بل اتجهت صوب مشاركة الذات هموم الواقع الفاسد، فعبرت عن تراكمات الوجود وصراع الذات مع الآخر، فالرواية العربية تنافس الآخر وتسعى للردّ عليه في مختلف الكتابات والقراءات محاولة بذلك إثبات هويتها الحاضرة وعدم إغفالها، فالرواية الغربية لا تنفك يوما بعد يوم من مهاجمة الشرق بطريقة خبيثة تتخفى وراء شعارات وهمية باسم التحديث والتغيير العالمي، وهي في جوهرها المستتر تحمل رؤية استعمارية استدمارية لنهب وسلب هوية الذات، الأمر الذي حرّك أعلام النقد والإبداع الثقافي لممارسة حق الردّ ونسق المقاومة دفاعا عن خطاب الهوية الإنساني⁴، فكتابات مبروك دريدي وواسيني الحبيب السائح وبشير مفتي تحمل في بنياتها خطابا هوياتيا يحاكي علاقة الذات المبدعة بالوطن، فحملت أعمالهم ردّا وتمثيلا لقضايا وطنهم المقاوم لمختلف محطات الحياة، فكانوا أمثلة وافية عن نخبة المثقفين الذين حاربوا الآخر وثاروا ضد النظام الفاسد، فكان المثقف دليل الشعب البسيط والمرأة المعبرة عن تطلعات وأحوال البنية المجتمعية، فاستطاعت بذلك الرواية الجزائرية مع مطلع العشرينيات أن تصنع نوعا روائيا ذو تطوّر سردي معبر بلغة الوطن والهوية عن واقع وقضايا الحياة الاجتماعية⁵.

لتبقى بذلك الرواية سلاح المثقف في وقتنا الراهن أين اعتمدها كدليل سردي لتمثيل وتجسيد نظرته تجاه الآخر، أو قضايا وطنه، ودفاعا عن تاريخه الإنساني، معبرا بذلك عن هويته المتصارعة مع سلطة الوجود، فالمثقف الحقيقي يمثل سلطة الوعي والمقاومة لكل محاولات لفك وتقطيع هوية الذات، وأي محاولة لمخالفة نظم الحياة يمثل خرقا ثقافيا لسلطة الإنسان، والواقع الجزائري نموذج حي يبرز العلاقة الوطيدة بين المثقف وهويته وحرصه الدائم على تشكيل أعماله وفق وحدة الانتماء الثقافي والدفاع عن مختلف قضايا وطنه.

2/ نسق الهوية ووعي المثقف

إنّ الهوية فعل تكويني اجتماعي يحاور علاقات الذات الإنسان مع مختلف الثقافات، " فالهوية تمثل الرابطة القيمة والمسلكية بين أفراد المجتمع ككل أو شريحة اجتماعية معينة، بحيث يرى الفرد نفسه من خلال المجتمع الذي يشاركه نفس القيم والاعتقادات والسلوك"⁶، أي أنّ فعل الهوية لا يرتكز على بعد عرقي أو لغوي بل يحتكم إلى عناصر ثقافية تشكّل البناء الأكبر لتمثيل هوية المجتمع، فهوية الفرد خاضعة لمعيار الانتقاء والتحيين لحظة حدوث تغيرات وتقلبات ثقافية غير أنّ الهوية الأصلية لا يمكن أن تنزاح بمجرد حدوث تغييرات سوسولوجية، الأمر الذي يجعل من بناء الهوية تركيبا حياتيا يلزم تنقلات الفرد من بيئة لأخرى خاصة وأنّ العالم يعيش في ظلّ صدمات وصراعات حضارية تستدعي مراقبة فاعلة من دعاة الثقافة، وطبعا لا تصنع الهوية ولا تخضع لفعل الاستمرارية إنّ لم يدافع عنها صنّاع الثقافة أو ما يسمّى بمثقفي المجتمع، فكلّ حضارة أو بنية مجتمعية تحمل رؤية ثقافية يصنعها الوعي الهوياتي⁷، فالشاعر العربي كان مرآة البيئة العربية والمدافع عن هوية القبيلة العربية في مختلف قضاياها ومواقفها، ولم يقتصر على فنّ الشعر بل اتجه لمختلف الفنون الأدبية وصولا إلى حياتنا اليوم، أين تمثل الرواية اليوم إحدى روائع الكتابة الحداثيّة نظير أسلوبها التخيلي ولغتها الخارقة لحدود المألوف، فارتسمت في أعماقها هوية الأجداد وتاريخ الحضارات وعبرت في مضامينها عن قضايا الإنسانية، فالرواية تمثل الابنة المدللة لمثقفي الحياة، فهي بقدر اختلافها عن بقية الأجناس استطاعت أن تمنح فضاءات سردية للمثقفين لتمثيل رؤيتهم وإعلاء صوتهم أمام أبواق السلطة ومختلف النظم الاجتماعية.

مما يجعلنا نفهم أنّ الهوية ذات بعد حياتي تراثي خاضع لفعل التغير مع تعاقب صور التعبير والتمثيل، ولا أحد يستطيع أن يعيش خارج كنف هويته، فالمثقف اليوم لا يشترط وجوده من النخب الثقافية فقط بل يتوجب معرفته بمختلف أساليب الحياة وتغييراته، ممّا يخلق في ذهنه وعيا حضاريا بنظام وجوده غير ذلك فيمكن تسميته بالمثقف الجامد غير العارف بنقائص الوجود والصامت أمام أشكال الظلم والاستلاب الثقافي على عكس المثقف النموذجي المعبر عن صوت الذات والجماعة والمعارض لهم السلطة الفاسدة الأمر الذي يجعل مختلف المثقفين المعارضين يعيشون أزما خارقة صنعتها السلطة السياسية أو الاجتماعية،

فكل واحد منهما يسعى لاستمالة المجتمع وتأييد وجوده الفكري، فوظيفة المثقف المثالي ليست الانحياز للسلطة أو الذات بقدر ما تكون وسطية تعطي الحق لكل طرف وتدافع عن هوية المجتمع قبل كراسي الحكم أو عواطف الذات⁸، " فالمتقفون الحقيقيون أقرب ما يكونون إلى الصدق مع أنفسهم حين تدفعهم المشاعر الجياشة والمبادئ السامية، أي مبادئ الحق إلى فضح الفساد، والدفاع عن الضعفاء وتحدي السلطة المعيبة أو الغاشمة"⁹، ومفاد ذلك أن المثقف النموذجي تأتي مهمته في تعرية سلطة القمع والفساد ودحض مختلف خطابات الاستلاب والاستعمار الثقافي غير ذلك لا يمكن أن تطلق عليه مثقفا فاعلا بقدر ما يكون مغلوبا على قلمه، مواليا لأهل السلطة وهذا ما يصنع عبودية الحرف وينمي في روح السلطة الجشع والطمع في غياب رقابة وطنية، فالحياة اختلاف وائتلاف، اختلاف في اللغات والعادات والتقاليد، وائتلاف في نسق الانتماء والهوية المجتمعية لكل بناء اجتماعي ثقافي، ومهمة المثقف تكريس قلمه ولسانه لتمجيد هويته والدفاع عنها في مختلف محطات الحياة، ليكون ناقدا رافضا لأشكال الظلم والعداء السلطوي¹⁰، فوعي المثقف بهويته ووجوده الاجتماعي تمنح الذات قدرة على تعرية وكشف ملاسبات الواقع الحياتي وأهم تغيراته على حدود الزمن، فمثلا لحظة قراءة كتابات الفيلسوف الإيطالي والمناضل الشيوعي "أنطونيو غرامشي" داخل السجن، وهي تمثيل لمعاناة القمع والاستبداد التي عاشها غرامشي نتيجة رفضه ونقده للسلطة، فاستولت على أراضيه ومختلف حقوقه، فهمشته وأدخلته في دواليب الظلم وسجنات الذات الظالمة، لكن رغم ذلك بقي محافظا على نقده للنزعة الميكانيكية في الحركة الاشتراكية الديمقراطية، تاركا مؤلفا معنونا بدفاتر السجن عبّر من خلاله عن سهام السلطة الفاسدة وكيفية ظلمه وقمعه في جدران التكبيل وسلب حرية الذات¹¹، ما يؤكد وعي المثقف بذاته ونضاله السامي من أجل إعلاء صوت مجتمعه أو تأكيد موقفه الناقد لهويات السلطة القاتلة، فالمثقف اليوم فرد واع ذو مخزون معرفي قادر على تعرية ومجابهة مختلف الخطابات الفاشلة، ويهدف لخدمة قضايا مجتمعه الغارق في سهام الفقر والأمية والاستعباد وغيرها من صور المعاناة التي عايشها الإنسان في خارطة الحياة، فأضحى المثقف واجهة المجتمع وقبلة كل جاهل باحث عن معارف وقضايا تؤرق مفكرة المجتمع، فلا هوية بدون مثقف واع، ولا حياة بدون نخبة مثقفة تدافع عن مصالح المجتمع الواحد في ظل تعدد التيارات الغربية وصراع الحضارات، فكل مثقف ملزم بفهم موقفه وإثبات نضاله الثقافي في سبيل هوية أمتة وتكريس صوته دفاعا وتمثيلا لعناصره الثقافية.

3/ صور أزمة المثقف في رواية وحيدا في الليل لبشير مفتي

يعدّ بشير مفتي من أهم الروائيين الذين ساهموا في تطور ورقي الرواية الجزائرية نظير بعده ومخالفته لحدود الكتابات التقليدية والنمطية، حيث جاءت معظم كتاباته تمثيلا ودفاعا فائق الحدود عن منجزات المثقف الجزائري خاصة والعربي عموما، فشكّلت كلماته من حروف نابية حارقة تجاه سلطة الحكم الفاسدة

والمعارضة لخطابات المثقفين الأمر الذي أدخلهم في أزمت مع السلطة والمجتمع والثورة وصولاً إلى سهام الآخر، ولعلّ رائعته السردية "وحيدا في الليل" تمثّل لسلطة المثقف الذي يصارع وحيدا في غياهب الليل الفاسد، هو صراع ربطه بشير مفتي بأزمة الجزائر مع الاستعمار والإرهاب وصولاً إلى حاضر متعفن بصور الظلم والفساد السياسي الذي يلاحق سلطة المثقف نظير رفضه ونقده لأشكال الظلم وغياب مبادئ العدل.

1/3 بين المثقف والسلطة علاقة ائتلاف أم صراع

تحاكي رواية وحيدا في الليل واقعا ثقافيا تأزمت فيه الأوضاع الاجتماعية والسياسية داخل الجزائر جزاء عزوف السلطة عن الاهتمام بدور المثقف في محور التشارك السياسي، فباعت مكانة كل مثقف رهينة التهميش والتغيب الثقافي وذلك ما نجده في شخصيات الرواية كحال رشيد كافي، وشخصية الناشر، فريدة سقاف حيث جسّدت هذه الشخصيات رؤية قاسية حول غياب الوعي بسلطة المثقف ودوره الدينامي في تمثيل هوية المجتمع، لتجنّد السلطة مقاليد الحكم الظالمة لتفكيك حلقة الوعي الثقافي وإحداث قطيعة مع بنية المجتمع، لتمارس سلطة الحكم مختلف أنواع الأحكام السلطوية، لكنّ عبثا تحاول فأهل الثقافة لا يشبهون طبيعة المجتمع الذي ظلّ جامدا صامدا أمام حكم السلطة، وتعدّ شخصية والد فريدة سقاف نموذجا لعلاقة الصراع القائم بين السلطة، حيث جسّدت قطيعة الوالد وثورته الثقافية تجاه سلطة الحكم الفاسدة نظير رغبتها في الانقلاب على حكم بن بلة، فوالد فريد كان صحفيا بارعا ذو أسلوب ثقافي تسمع له الآذان، لكن غطرسة الحكم انتقلت إلى أصحاب مؤسسات النشر التي عارضت أيّ مثقف يناهض ضدّ أصحاب السلطة، ليتعرض والد فريد لمختلف أشكال التعذيب داخل جدران السجن¹²، ما يبرز سهام الحكم في تلك الفترة القاسية وكيفية مقاطعة المثقفين لأحكام سادة الحكم ليتعرضوا لمختلف أشكال التغيب الثقافي، ممّا يفيد أن أيّ معارض لهم السلطة سيلقى مصيرا أسودا كحال شخصية والد فريد سقاف الذي حزنّت من أجله ابنته وبقيت تردد ذكرها في عيونها والمشهد التالي وقفة سردية واصفة لحال المثقف والناقد لسياسة الحكم الفاشلة حيث تقول "نظرته الحانية تلك التي تعيده إلى إنسانيته التي عملوا على تكريسها في داخله، كان يحب أن يحضنني عندما أقرب منه، لكن دون أن يتفوّه بكلمة واحدة، صار عاجزا عن الكلام، عاجزا عن التواصل باللسان، هو الذي كان قبل ذلك مثقفا وخطيبا بارعا وعندما يتكلم يثير إعجاب كل الناس..¹³" ودلالة هذه المقطع السردية وصف إنساني لحال مثقف واحد، محبوب وسط الناس، لا يتكلم إلا بحق كفيل بذاته ومجتمعه، لكنه كسر واكتفى بالصمت وأضحى عاجزا مكبلا لا يقدر على إعلاء صوته، لتتجسّد سلطة الفساد والجور في تفتيت هوية المثقف وتقيده وفق ضوابط تعسفية ترغمه على الصمت، فالصحفي رمز لتقصي الحقائق السلبية وتعرية مختلف دسائس الحكم الظالم، ليجد المثقف نفسه وحيدا يصارع أهات العذاب، فلا كلماته وأحرفه الثورية لقيت ترحيبا وسط دائرة الفساد ما جعل مختلف دور النشر تعارض

خطابات المثقفين ولعلّ الحاصل في شخصية صديق رشيد الكافي الذي ولع بفن الكتابة الصحفية حالما بذلك بتشكيل أعمال أدبية راقية تصور حياة المجتمع وتعرف بتقاليده وأعرافه ليشارك الناشر شخصية رشيد الكافي المعروف بكتابه السامقة والمعبرة عن خطاب الهوية العربي، ليسود بينهما حوار ثقافي يصلان فيه لنتيجة اجتماعية مفادها ضرورة توفر المال لبلوغ دور النشر كونهم أصحاب مادة لا فكرة، فلا يهم الوطن في جلدتهم حيث يقول رشيد الكافي " لكن قمت بزيارة معظم الناشرين الذين ينشرون الكتب على قلتهم وبعد حديث قصير فهمت أنهم أولاً لا يفقهون شيئاً في الأدب وثانياً أنهم حريصون على عدم تبذير أموالهم في نشر أشياء لن تجلب لهم مالا كثيراً¹⁴ ومعناه أن صنّاع النشر لا يفقهون بخصوصية العمل الإبداعي بقدر حبهم وشغفهم الكبير بتتبع خيوط المال الوافر، ما يؤكد ضعفهم الفكري وخضوعهم لسلطة الحكم دون إحداث أيّ معارضات وانتقادات قد تساهم في محو مؤسساتهم الناشئة، فسلطة النشر كَبَلت حريات المثقفين وجعلتهم غارقين في حبال الفقر والتشتت فكانوا أصحاب فكرة لا مال، على عكس مؤسسات النشر التي كانت مليئة بالأموال التي تقدم من السلطة أو المثقفين الموالين لأهل السلطة حيث يقول الناشر ياسين " فهي تحتاج كي تقوم لها قائمة إلى مال وفير وتسويق حقيقي وتعاملات مع أصحاب المطابع والمكتبات وشركات التوزيع"¹⁵، فشخصية الناشر ياسين تمثل على ضعف دور النشر وتركيزها الشديد على ربح الأموال وفق طرق تجارية مختلفة، فهوية الوطن وقضايا المجتمع لا تحمل فائدة ربحية لأهل المؤسسات والمكتبات لهذا يتوجب تغيير بوصلة الربح نحو مؤسسات الدولة التي تدعم فقط الجهات الموالية لها في الحكم وتدعمها من خلال نشر وتشكيل كتابات تمجد الحاكم قبل المحكوم فضلاً على دور أهل الصحافة في تهميش المثقفين الفاعلين كما حدث مع شخصية رشيد الكافي الذي نشر عمله الأول " مرايا الجنون" الذي انتقد فيه رشيد دور الصحافة في الوطن وغيابهم الفاعل عن مشاركة المثقف تجارب الإبداع¹⁶، لتشكل هذه النقطة علامة خطر في مسار رشيد الكافي الذي هاجمته مختلف أقلام الكتابة، فباءت مكانة رشيد هامشاً مغيباً وسط صحافة فاشلة مغلوب على أمرها في وقت شهد مختلف الصراعات والتقلبات السياسية بدءاً بزمان الاستعمار وما تلاه بعد الاستقلال من فتيل الإرهاب، هي وقائع قاسية قيّدت حرية المثقف الجزائري وجعلته يعيش في كنف التهميش والتغيب الثقافي.

فالمثقف في سطور الرواية لم يسلم من سلام الحكم الفاسد فقط بل تعرض لجراح حارقة من قبل بعض المؤسسات السلطوية ما جعله أشبه بلعبة تتحكم فيه أيادي سلطوية تنشر ما تريد وتنتقد وتعارض كل خطاب تهكمي ساخر، فشخصيات الرواية مثلت بصورة واعية حال المثقف المعارض والمقاوم وكيفية ضياعه وحيدا في غابة مظلمة لا يحمل أنوارها سوى غربان السياسة الفاشلة، فشخصية ياسين حلمت فتح دار نشر لكنها تفاجأت بواقع مادي رهيب يؤرق حلمه، بينما اصطدمت أحلام الصحفي المثقف رشيد الكافي بهجمات

عدائية صنعها أبناء مهنته فضلا على الدور الخفي الذي تمارسه عيون السلطة لتمكين الحاكم من مواصلة مساره الظالم، لتنتهي أحلام رشيد مهمشا تأنها في جدران الفقر والخديعة التي تعرض لها جراء نقده ورفضه لسلطة الفساد وصحافة الجهل الفكري، فكتبت وغردت معظم الصحف بعد وفاته رحيل الكاتب الكبير شيد كافي وهو في أوج عطائه الإبداعي.. هذه الصورة التعبيرية حملت نعمة فارحة في نفوس المثقفين الضعفاء والمغلوب على أمرهم، فلحظة فقدان هذا المثقف تفتنت عيون الصحافة لمساره ولكن هذه حال نعمة لا تستغل ولا ينظر لها إلا بعد رحيلها¹⁷.

ما يفيد قولاً أنّ رواية "وحيدا في الليل" شكّلت علامة تعريفية لنمط الصراع الحاصل بين المثقف وسلطة الحكم أو سلطة مؤسسات تدعي الفكر والثقافة، لكن عبثا يحاولون فسردية وحيدا في الليل صورة حيّة لواقع المثقف المعارض لسلطة الظلم والعنف الذي تمارسه مختلف الجهات الحاكمة تجاه الذات الإنسانية، والجزائر نموذج بارز لإقصاء المثقف وتهميشه، فكان صوته المعارض والمندد لحقوق المجتمع نقطة سوداء تعجل بدخوله إلى غياهب السجن والتعذيب الجسماني والنفسي، لكن ورغم مرارة القيد وغياب العدل تجد المثقف النموذجي والمتحفظ يظل صامدا ثابتا تجاه مواقفه، وتلك هي صور الروائي المبدع بشير مفتي الذي اختار الاختلاف بدل الائتلاف، والمعارضة قبل التأييد، فكان قلمه أشبه برصاصة مدوية في سماء السلطة الفاسدة، الأمر الذي منحه قيمة أدبية لا تباع ولا تشتري في زمن فتن به المثقف بالمادة قبل الفكرة .

2/3 المثقف ونسق العنف

لقد شكّل ظهور روايات بشير مفتي في مرحلة التسعينات صورة مطابقة لمظاهر الثورة والعنف التي تعرض إليها المثقف العربي نظير دفاعه الدائم عن قضايا ومواقف المجتمع، فبعد الاستقلال صبغت الحياة بالكثير من الأحداث والتقلبات السياسية ممّا أسهم في تردي الأوضاع وانحدار المستوى المعيشي، وتكثر قضايا الاضطهاد السياسي، فالكلّ يرغب في تولي زمام الحكم على حساب شعب نهشت الثورة جسده وأردته ضعيفا حائرا بين حناجر وخطابات سياسية أدخلت البلاد في أزمة خانقة ولدت سهام الإرهاب القاتل، ليعيش الشعب الجزائري أزمة أخرى، ففرّ الناس من جحيم القتل، وتناحرت الأجساد حول كراسي الحكم، فتشوّهت المدن، وغرقت المساجد في دماء التقتيل¹⁸، ولعلّ القارئ لرواية "وحيدا في الليل" يجد طرق ممارسة العنف على أصناف المجتمع والمثقف نموذج إنساني تعرض لمختلف أساليب الاضطهاد والتشويه كحال شخصية الصحفي والد فريد سقاف الذي جني ثمار رفضه ومقاطعته لخطاب الانقلاب والتمرد على حكم بن بلة، ليجد نفسه تأنها وحيدا بين أشواك السجن هناك تعرض لأشد سبل التعذيب والتقتيل في سبيل الكف عن موقفه، لكنه بقي صامدا لغاية موته¹⁹، حيث ترسم لنا هذه الصورة حياة المثقف والضغوطات التي توضع عليه للكف عن انتقاد سادة الحكم وضرورة الوقوف بجانبهم، لكن بشير مفتي رسم لنا صورة مخالفة

من خلال شخصيات الرواية رشيد كافي وياسين وغيرهم ممن شارك في عمليات الثورة والنضال من أجل إعلاء صوت المجتمع، فرواية وحيدا في الليل لوحة سردية واصفة لحال المثقف وصراعه المستمر مع صناع الحكم السياسي، فرشيد الكافي الحالم بنشر موقفه وأعماله لقي التهميش والتغيب نظير نقده لسلطة المؤسسات والخطابات الحاقدة على رجيل المثقفين.

ونقرأ صورة أخرى من ممارسات العنف من خلال تربية الأب للأبناء والتلذذ بتعذيبهم وهي إحالة غير مباشرة تحاكي هوية الوطن الذي تسيّره أيادي فاسدة، فتتلذذ في تقتيت وطمس وجود أبناءها كونهم كشفوا وتمردوا على سلطتهم الظالمة، فكانوا لا يهتمون بأهل القرى وغيرها بحجة أنهم أصحاب نفوذ وحضارة، ليمارسوا مختلف صور التهميش الاجتماعي تجاه الفئات المستضعفة²⁰، ما يبيّن لنا أنّ نسق العنف في رواية وحيدا في الليل حظي بحضور لافت أراد من خلاله الروائي كشف وتعرية الأنا الظالمة وكذلك سلطة الآخر المستبدّة، فسادة الحكم استعملوا كلّ السبل لإغراق البلاد في كمين الإرهاب والعيش في دواليب القتل والترهيب ليعيش المجتمع جحيما جديدا بعد انقضاء عهد الاستعمار وما خلفه من دمار وقتلى، لكن تغيرات البلدان وتعدد الخطابات أسهم في تأجج الأوضاع ودخول البلاد في نفق العشرية القاتلة، ليواصل المثقف مساره النضالي داعيا لضرورة الكفّ عن ممارسات العنف والاستماع لمطالب الشعب البسيط، لكن هذا النضال والخطاب الثقافي جعل المثقف يعيش في جحيم السجون والتعذيب نظير مخالفته لنظام الحكم وهذا ما حاول بشير مفتي تمريره وفق نسق مضمّر مبينا أن الوطن يعاني من ويلات الفقر والتهميش وغياب مبادئ المساواة والعدل، فوحيدا في الليل نموذج لوعي المثقف بحال أرضه ودفاعه المستمر عنها، فلا سجون وحصون الدولة ستمنع المثقفين الأولياء من الدفاع عن قضايا أوطانهم، فالموت واحد والتاريخ يسجل مواقف الرجال وتلك هي الرسالة التي يسعى بشير مفتي إيصالها لكلّ صناع النخبة مؤكدا أن المثقف المثالي لا يباع ويشترى وفق عملة مالية كبيرة أو منصب عال بل يبقى شامخا كالصقر له عيون تدبّ في كل مكان يحارب من يحاول المساس بهوية الوطن .

وتتكرر صور العنف في رواية وحيدا في الليل من خلال صراع الذكورة والأنوثة وممارسة سهام العنف والحرمان تجاه المرأة البسيطة، فهي سلعة جنسية لا غير لا يسمح لها بإبراز موقفها ونقرأ ذلك في المقطع التالي "وتزوج من فتاة تسكن بقريته الصغيرة في أعالي الجبال ولقد كان زواجا سيئا لوالدي فقط بل حتى لوالدي التي شعرت بذلك النفور من زوجها في أول ليلة"²¹ فهذا المقطع السردى وصف لهوية العلاقات الزوجية وفق عادات وتقاليد قديمة لا تقبل بدخول أطراف غريبة في العلاقات الزوجية كما حدث مع جدّ هشام الذي رفض زواجه من امرأة باريسية كونه أمرا مخالفا للعادات العربية وتزويجه من فتاة قروية بدون مستوى ثقافي²² .

ما يبرز تهميش المرأة واعتبارها مجرد جسد بلا فكر تنتهي مهمتها لحظة قضاء الرجل لحاجته منها، فمهما قدمت لا يسمح لها بتقديم موقفها أو التعلم خشية خروجها من نسق الذكورة السلطوية، وهنا تحدث المفارقة بين بنت الحضارة والريف، فالأولى متعلمة عارفة بحدود الثقافة والتمدن بينما تتوقف مهمة المرأة القروية في العمل وخدمة الرجل بعيدا عن تشوهات وخروقات الفضاء الحضاري ونجد ذلك موضحا في رواية وحيدا في الليل من خلال صديقة رشيد الكافي فريدة سقاف ابنة الصحفي الذي تعرض لمختلف صور التعذيب والظلم نتيجة انتقاده لسلطة الانقلاب السياسي، حيث كانت عارفة متعلمة، مدركة لحقائق ومجريات القضية وبقيت محافظة على موقف والدها تجاه سياسة الظلم والاضطهاد الذي يمارس على مختلف أصناف المجتمع، فالمرأة غير المتحررة والمتعلمة في حدود الهوية الوطنية يمكن لها إبراز موقفها وإعلاء صوتها أمام خطابات سلطوية تقمع حريات الفرد، فبشير مفتي استطاع بلغته الرمزية السلسلة تمرير رسائل ثقافية توضح موقف المثقف من سلطة الوجود وضرورة منحه مسافات تعبيرية لإبراز موقف المجتمع ورفع انشغالاته بعيدا عن أطماع الفاشلين وكل الخونة الذين اتبعوا المصالح الفردية بدل العامة.

3/3 جدلية المثقف وخطاب الرد على الآخر

إنّ المتتبع لسطور رواية وحيدا في الليل يكتشف جدلا هوياتيا يرسم علاقة الأنا الوطنية بخطابات الآخر المستبدّ والمستقرّ، ممّا يثير مساءلة فكرية حول وجود خطاب الآخر في مختلف مجالات الحياة، فرغم مرارة وبشاعة فتيل الثورة إلا مظاهر الاستعمار لا تزال سارية حاضرة في حياة الإنسان الجزائري، فكيف لمستعمر نكّل بأجساد شعب نهشت عظامه، ودمرت مبانيه، شعب تذوق مرارة الفقد والموت فراح الملايين من الشهداء جراء ممارسات العدو الفرنسي الذي ما تزال آثاره بارزة إلى يومنا هذا، فبشير مفتي يكتب بلغة تنزف دماء الحزن والحسرة لما وصلت إليه البلاد من ضياع وفقر، تهميش وتقتيل، انقلابات ومؤامرات... هي مشاهد قاسية رسمتها رواية وحيدا في الليل لتبين أن الاستعمار لم يخرج من البلاد بل ما زال حاضرا مستقرا وفق أساليب ورموز ثقافية تحتاج فهما معمقا لمحوها بشكل نهائي ولعلّ المقطع التالي جزئية بسيطة لسلطة الآخر داخل الوطن "... في أسفل عمارة كبيرة تابعة للبلدية ولها مجموعة هائلة من العناوين الأدبية، عرفت بعدها أن الجزء الأكبر من كتبها عناوين بالفرنسية موجودة منذ ما قبل الاستقلال ، فرحت أنّ البلدية لم تهتم بتغيّر ذلك المكان فتحوله لنسق آخر كما جرت الأمور في أماكن أخرى" ²³، فوصف الكاتب لفضاء البلدية وكيفية وجود كتب بالفرنسية دليل قطعي بأن المغلوب لا يزال عارفا ومتأثرا بسياسة الغالب في وطن نهشت مؤسساته وضعفت إمكانياته وضاع وشابه بين سلام الفقر والجهل والتبعية القاتلة، فبشير مفتي يرسل بلغة ثورية رسائل نابية لكلّ خونة الوطن وسادة الحكم بضرورة الكف عن تتبع الآخر وضرورة طرده خارج نسق الهوية الوطنية ، فالعروبة والاسلام والعربية قيم سامية لا تدنس بخطابات

استدمارية كانت بالأمس القريب عدوا لدودا، قاتلا متربصا، حاقدا كارها، فلا تقبل خطاباته السلمية ولا مبادئه الفاسدة، فرؤية كتب فرنسية تراوح دفات المكتبات دليل مهين لضعف الذات وفشلها في مقاومة خطاب الآخر، ما يؤكد أنّ الهوية الوطنية تعرضت لاستقزاز هوياتي يحاول بتر جذورها وإحلال قواعد جديدة، وتتكرر صور الآخر وكيفية دخوله في جوانب الثقافة الوطنية لحظة رغبة هشام في الزواج من امرأة باريسية، ليعارضه جدّه بكونها غريبة وعدة للذات العربية، مخالفة لسلم العادات والتقاليد التي فطر عليها الشاب الجزائري، فالكاتب يذكر رجيل الشباب اليوم بنضال الأجداد وكرهم الكبير لكل خطاب غربي يتوجس الدخول ضيفا على هوية الوطن²⁴.

فالقارئ لهذه الرواية يلاحظ دلالية سردية تتكرر في معظم روايات بشير مفتي أين يعمد دوما إلى توظيف شخصيات مثقفة لتمثيل هويته وإبراز موقفه تجاه سلطة الواقع، فشخصيات الناشر، والكاتب رشيد الكافي، ووالد فريد سقاف وغيرها تمثل وعي المثقف بضرورة النهوض والرد على خطاب الآخر، فبشير مفتي لا يقبل قسمة الأنا العربية لهويتها والرضوخ لهوية الآخر الفاسدة داعيا بذلك إلى وجوب التحرر من قيود وسجنات الغرب الغاشم، فالهوية العربية لا تمس ولا تلطخ بأيادي دامية قاتلة، لذلك يتوجب نصره المثقف ودعوته للاندماج في الأطر السياسية والاجتماعية وإعلاء صوته في نظم الحكم، فالمثقف الحقيقي ليس من يقف بجانب السلطة ويصفق لخطاباتها بل من يساند هوية المجتمع ويعرض مشاكله ونقائصه وغير ذلك لا يمكن أن نسميه مثقفا بل شبه مثقف لا صوت ولا قيمة له في هرم الخطابات الرسمية.

خاتمة:

نصل في خاتمة رحلة البحث إلى القول بأن روايات بشير مفتي مثلت بشكل علني هوية المثقف الفاعل والنموذجي نظير كتاباته الداعية لضرورة تعرية وكشف ملابسات الواقع الحياتي المرير مؤكدا أن هوية الوطن أمانة في أيادي المثقفين الأوفياء، فيدعو بشير مفتي كل مؤسسات الحكم إلى ضرورة ردّ حق المثقفين وعدم إخضاعهم لقوانين تعسفية تعارض وجودهم وتمنعهم من نقد سادة الحكم، وقد صورت رواية وحيدا في الليل أزمة المثقف وصراعه الدائم مع هرم السلطة ناهيك عن محاربته لسهام العنف تجاه النخب وسلطة المجتمع خاصة المرأة، لينتقل بعدها الروائي لعرض موقف المثقف من وجود خطاب الآخر داخل هوية الأنا، مما وضح لنا أن مضمون الرواية يحاكي موقع المثقف ضمن الذات العربية وضرورة إشراكه في مختلف قضايا ووقائع الحياة، فهو صوت الطبقة البسيطة والممثل الحقيقي لنخب المجتمع الذي يسعى إلى تنمية الفكر الثقافي داخل المجتمع الجزائري والعربي.

الهوامش:

- ¹ - ينظر: عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1998، ص: 25، 26.
- ² - ينظر جميل حمداوي، مستجدات النقد الروائي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2001، ص: 11
- ³ - ينظر: مفقودة صالح، نشأة الرواية العربية في الجزائر التأسيس والتأصيل مجلة المخبر أبحاث في اللغة العربية والأدب الجزائري، كلية الآداب والعلوم، جامعة بسكرة، ص: 58، 59.
- ⁴ - محمد مصايف الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، الدار العربية للكتاب والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت، ص: 13.
- ⁵ - عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما، ص: 241، 242
- ⁶ - عبد الله الجسمي، الهوية وثقافة العولمة، مجلة العربي، ع 560، 01 جويلية، 2005، ص: 100.
- ⁷ - محمود أمين العالم، الفكر العربي بين الخصوصية والكونية، القاهرة: دار المستقبل العربي، ط1، 1996، ص: 16، 17.
- ⁸ - ينظر: علي حرب، أوهام النخبة أو نقد المثقف، دار النشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2004، ص: 145.
- ⁹ - إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص: 36.
- ¹⁰ - ينظر: نهى الحجازي، المعرفة والسلطة، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1998، ص: 443، 444.
- ¹¹ - ينظر: أنطونيو غرامشي، القضايا المادية التاريخية، تر: فواز طرابلس، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1971، ص: 05
- ¹² - ينظر: بشير مفتي، وحيدا في الليل، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2019، ص: 50، 51.
- ¹³ - المصدر نفسه، ص: 51.
- ¹⁴ - المصدر نفسه، ص: 16
- ¹⁵ - المصدر نفسه، ص: 12
- ¹⁶ - ينظر: بشير مفتي، وحيدا في الليل، ص: 18
- ¹⁷ - ينظر: المصدر نفسه، ص: 24.
- ¹⁸ - ينظر: سعاد حمدون، صورة المثقف في روايات بشير مفتي، مذكرة ماجستير، جامعة ورقلة، ف 1، 2009، 2010، ص: 22، 23.

- ¹⁹ - ينظر: بشير مفتي وحيدا في الليل، ص: 50
- ²⁰ - ينظر المصدر نفسه، ص: 108
- ²¹ - المصدر نفسه، ص: 107.
- ²² - ينظر المصدر نفسه، ص: 74.
- ²³ - المصدر نفسه، ص: 111.
- ²⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص: 73، 74 .

قائمة المصادر والمراجع:

المراجع باللغة العربية:

- 1/ بشير مفتي، وحيدا في الليل، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2019.
- 2/ إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006.
- 3/ علي حرب، أوهام النخبة أو نقد المثقف، دار النشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2004.
- 4/ جميل حمداوي، مستجدات النقد الروائي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2001.
- 5/ عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1998.
- 6/ محمد مصايف الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، الدار العربية للكتاب والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت.
- 7/ نهى الحجازي، المعرفة والسلطة، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1998.
- 8/ عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما.
- 9/ محمود أمين العالم، الفكر العربي بين الخصوصية والكونية، القاهرة: دار المستقبل العربي، ط1، 1996.

المراجع المترجمة

- 10/ أنطونيو غرامشي، القضايا المادية التاريخية، تر: فواز طرابلس، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1971.

المجلات

- 11/ مفقودة صالح، نشأة الرواية العربية في الجزائر التأسيس والتأصيل مجلة المخبر أبحاث في اللغة العربية والأدب الجزائري، كلية الآداب والعلوم، جامعة بسكرة.

12/ عبد الله الجسمي، الهوية وثقافة العولمة، مجلة العربي، ع 560، 01 جويلية، 2005.

الأطروحات

13/ سعاد حمدون، صورة المثقف في روايات بشير مفتي، مذكرة ماجيستر، جامعة ورقلة، ف 1،
2009، 2010.